# الكتابة الاختلافية
## في «خارطة الحُبّ» لأهداف سويف

ليلى الخطيب

تندرج هذه الدراسة في مسار تفكير نظريّ وتحليليّ أيضًا، يتمحور حول سؤال الاختلاف (وخاصةً الاختلاف الجنسيّ) وسؤالِ الغيْرية (altérité)، وهما سؤالان نحاول مِنْ خلالهما فهمَ ديناميةِ ما يَجعل الذاتَ تختلف في ذاتها فيما هي تختلف مع آخر: فهل ذاتي كوجود (être) واحدةٌ؟ ألا يَقْسمها دومًا، فيجعلُها تختلف دومًا، آخر ما، تُصيبه ذاتي في غيْريته فيما هو يصيبها في غيريّتِها، وفي هذه الإصابة نكون؟

◆ ◆ ◆

كُتبتْ ونُشرتْ **خارطة الحبّ** باللغة الإنكليزية عام ١٩٩٩، ونقلَتْها إلى العربية والدةُ أهداف سويف، الدكتورة فاطمة موسى.[١] ويتناول بحثُنا الروايةَ في ترجمتها العربية.

في أول صفحة من الرواية نقرأ:

«الإهداء:

إلى أمي، فاطمة موسى، منها بدأتُ وإليها أرجِع.»

من خلال هذا الإهداء، يُفتتح النصُّ على ديناميته الأساس، والتي تنكسر بها ثنائيةُ البداية والنهاية، وثنائيةُ الحياة والموت بالمعنى التليولوجيّ ـ الإسكاتولوجيّ، الذي يَفْهم حركةَ الكون، ومن ثم وجودَ البشر، من منطلقِ تحديدِ موقع البدايات والنهايات. ومن هذا النهج الذي لا يسلِّم بمنطق الثنائيات، بل يحاول تتبُّعَ حركة الاختلاف في تقاطعاتها، تحاول هذه الدراسة قراءةً اختلافيةً لخارطةِ حبٍّ قَرَأْنا، بدورها، من خلال كتابتها الاختلافية. ولعلّني، بهذا المعنى، قد قرأتُ كتابتَها قراءةً اختلافية، بقَدْرِ ما قرأتْني كتابتُها الاختلافية فكَتَبْتني.

تحاول هذه الدراسة، إذن، قراءةً اختلافيةً نُبرز من خلالها:

١ ـ كيفيةَ عملِ الاقتصاد الاختلافيّ، الذي يُصيِّر الروايةَ ـ فيما هي تُصيِّره:

٢ ـ المعانيَ الأنطولوجيةَ التي تُبلورها أو تُفَعِّلها ديناميةُ هذا الاقتصاد، وهي معانٍ تُحيل أساسًا على انقسام الذات في اختلافها مع الآخر.

أوضّح أولاً ما نعني بالاقتصاد الاختلافيّ، ثم أشرح كيفيةَ عمله في الرواية:

يتشكّل الاقتصادُ الاختلافيُّ عمومًا، وفي **خارطة الحبّ** خصوصًا، في منظومة من الديناميات الاختلافية. ويتحرّك في هذه الديناميات طرفان. لكنّهما لا يتحرّكان هنا من حيث اختلافهما الثنائيّ، بل من حيث اختلافهما التقاطعيّ/التصالبيّ (croisement chiasmique): فلا يُمْكن للطرف الواحد (أ أوْ ب) أن يكون إلاّ فيما هو يتقاطع مع الطرف الآخر، ونقطةُ التقائهما هي هي نقطةُ انفصالهما. (انظر الرسم رقم ١)

رسم رقم ١

**دينامية التقاطع التصالبيّ**
**Chiasme/Croisement Chiasmique**

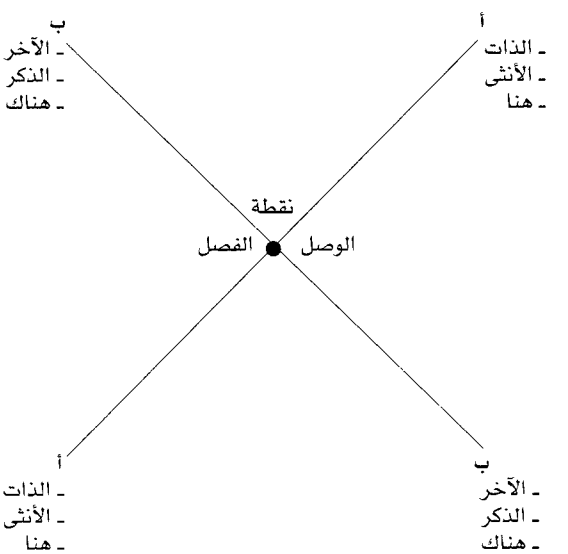


إنّ أبرزَ ما يَفْعله اقتصادٌ كهذا أو كتابةٌ كهذه هو أنّهما يَكْسران منطقَ الثنائية الذي يقوم عليه الفكرُ الميتافيزيقيّ. وتَكْسر **خارطةُ الحبّ** منطقَ الثنائية على مستويَيْن أو في اتّجاهيْن أساسيَيْن هما:

ـ المنطق التليولوجيّ أو الإسكاتولوجيّ، وقد أشرنا إليه:

ـ منطق علاقة الأنا بالآخر، سواء بالمفهوم الثنائيّ المحض، الذي يَسْعى إلى إضفاء خصوصيةٍ بل وهويةٍ متميِّزةٍ لكلٍّ من الطرفين،

---

١ ـ صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

وهو ما يَنْزع إلى نوع من الفصل بينهما: أو بالمفهوم المِرآويّ (schéma spéculaire, alter ego) أيْ بالمفهوم الانعكاسيّ للمرآة، ويَعْتبر هذا المفهومُ أنّني أرى الآخر فيَّ أنا، وأنّ الآخر يرى نفسَه فيَّ. ولا شكّ أنّ أبرز ما تَكْسره الرواية في هذا السياق هو ثنائية الأنوثة والذكورة، التي تقوم عليها بعضُ الطروحات النسوية، خاصةً تلك المتعلّقة بالكتابة النسوية، وتَسْعى غالبًا إلى إيجاد خصوصية للخطاب الأنثويّ.

لا تفكّك **خارطة الحبّ** هذيْن المنطقيْن إلاّ عبر اقتصادها الاختلافيّ أو كتابتها الاختلافية، أيْ عبر دينامياتها وتركيباتها الاختلافية (والتعبير الفرنسي هنا هو dispositifs différentiels، وهو لا يعني مطلقًا بنيةً جامدة، بل آلية متحرّكة). والاقتصاد الاختلافيّ هنا هو اقتصادٌ نصيّ (أو اقتصادُ كتابة) يتشكّل في منظومة من الديناميات الاختلافية: فكلّ دينامية هي اختلافية في ذاتها، وفي علاقتها مع الديناميات الأخرى. وهذا يعني أنّ ثمة تركيبًا اختلافيًا تُشكّله الروايةُ فيما هي تتشكّل فيه. ومن طبيعةِ أو خصوصيةِ التركيب الاختلافيّ (كما يُعْرف مثلاً في الفيزياء) أنّه يُفعّل الاختلافَ بين أزواج متعدّدة، وذلك على مستويات وفي اتجاهات مختلفة: إذ لا يكون الاختلافُ مثلاً بين طرفيْن فحسب، أو على مستوى واحد بعينه، أو في اتّجاه واحد فقط ، بل يكون **بين مجموعة من الأزواج وعلى مستويات عدّة وفي اتّجاهات مختلفة**.

ففي هذه الرواية، لا يكون الاختلاف بين رجل وامرأة اختلافًا في الجنس أو في النوع فقط (أنوثة/ذكورة)، بل هو في الوقت نفسه اختلاف في الجنسية أو في الهوية القومية (عربيّ/غير عربيّ)، وهو أيضًا اختلاف في المكان بمعنى الوطن والانتماء الجغرافيّ (هنا/هناك) وفي الزمن (ماض/حاضر). غير أنّ أيّاً من هذه الأطراف لا يُشكّل ذاتًا صافية: بل كلُّ طرف، كلُّ «واحد،» هو ذاتٌ منقسمةٌ تتقاطع مع الآخر في انقسامه. ذلك أنّ الديناميات والتركيبات الاختلافية تَقْسم أو تَشْطر البدايةَ في **ذاتها** والنهايةَ في **ذاتها**، وتَقْسم أو تَشْطر الأنا في **ذاتها** والآخرَ في **ذاته**.

ولنأخذْ مثالاً على ذلك يبيّن انقسامَ الذات في ما يخصّ الهوية القوميةَ والانتماءَ الجغرافيّ:

- آنا ونتربورن شخصيةٌ أساسيةٌ في الرواية، بل يمكن القول إنّها في أساس دينامية السرد؛ ذلك أنّ أمل الغمراوي تَكتب (الروايةَ التي نقرأ) من خلال قراءتها لكتابات آنا. آنا ونتربورن سيّدة إنكليزية تأتي إلى مصر في نهاية القرن التاسع عشر، فتُحبّ مصريّاً وتتزوّج منه وتُنجب منه ابنةً؛ وبعد مقْتله، في بدايات القرن العشرين، تعود مع ابنتها إلى إنكلترا. في هذا اللقاء/الافتراق، أيْ في هذا التقاطع، لا تعود آنا إنكليزيةً صافيةً، كما لا تصبح مصريةً صافيةً. تَنْقسم آنا في ذاتها: فلا هي واحدة دون الأخرى، ولا هي الاثنتان معًا (بالمعنى الانصهاريّ). لا تستطيع هذه الذاتُ المنقسمةُ أن تكون إلاّ فيما هي تَعْبُر انقسامَها (وهو أيضًا عبور جغرافيّ للحدود): تروح آنا وتجيء، فتتنقّل، تنقسم، تتقاطع مع ذاتها ومع الآخرين في انقسامهم.(١)

هذه الحال من الانقسام لا تخصّ آنا وحدَها، بل هي حالُ كلّ الشخصيات الأساسية: عمر وإيزابل وأمل:

- فـ «عمر» مصريّ يحمل الجنسية الأميركية، يعيش في أميركا ويدافع عن القضايا العربية معرِّضًا حياتَه للخطر. فما هي هوية عمر؟ وأين مكانه الحقيقيّ؟
- وإيزابل أميركية تأتي إلى مصر فتكتشف أنّها من سلالةٍ نصفُها مصريّ. تُحبّ عمر، وتُنجب منه ابنًا، وتأتي بابنها إلى مصر. فما هي هوية إيزابل الحقيقية؟ وما هو مكانها الفعليّ؟
- وأمل، شقيقةُ عمر، مصريةٌ عاشت في إنكلترا وعادت لتعيش في مصر، بينما بقي زوجُها وأولادُها في انكلترا. فأين هي أمل؟

كيف لهذه الذوات المنقسمة في ذاتها أن تلتقيَ دون أن يتّخذ لقاؤُها حركةً أو ديناميةً تقاطعية؟ كيف لذاتي المنقسمة في ذاتها أن تلتقي بذاتِك المنقسمةِ في ذاتها دون أن نشكّل، في لقائنا، حركةً تصالبيةً؟

---

١ ـ هكذا قرأْنا تنكُّرَ آنا المتعدّد: فهي، حينما تلتقي بشريف لأوّل مرّة، تكون متنكّرة في زيّ رجل إنكليزيّ، ثم تتنكّر في زيّ امرأة مصرية، وتعود فتتنكّر في زيّ رجل فرنسيّ. ونشير أيضًا إلى أنّ اسم «آنا،» الذي يمكن قراءتُه في الاتّجاهيْن، هو، حسب القاموس، اسمٌ مذكّرٌ ومؤنّثٌ. هكذا تَعْبر آنا حدودَ الجنس في زيّها وفي اسمها.

هذه الحركة، يبيّنها التركيبُ الاختلافيّ السياسيّ في الرواية: أيْ أنّه يبيّن كيفيةَ تقاطُع أو تصالُب كلّ ديناميةٍ اختلافيةٍ بين طرفيْن، كما يبيّن كيفيةَ تقاطع أو تصالب هذه الديناميات في ما بينها. وليس من المفارقة أن تُشكّل النسجيةُ التي حاكتْها آنا تركيبًا اختلافيّاً رمزيّاً، منه شكّلنا قراءتَنا لحركة التقاطع/التصالب بين الأطراف المختلفة: فهذه النسجية تُفعّل ـ من حيث ما تمثّله وأيضًا من حيث حكايتها (الحكاية/الحياكة) ـ الدينامياتِ الأساسيةَ في الرواية، ومن أهمّها: ديناميةُ الاختلاف الجنسيّ، وديناميةُ السلالة والتوالد. غير أنّنا لا نَعرف ما تمثّله النسجيةُ إلاّ تدريجيّاً، ولا تكتمل حكايةُ (أَمْ هي حياكةُ؟) قِطَع النسجية، ومن ثم صورتُها، إلاّ في آخر الرواية: هكذا يتبلور السردُ الروائيّ، بوصفه نسجًا للخيوط، مع تبلور حكاية النسجية وصورتها. فلْنَتْبَعْ، عبر الرسوم التالية، حكايةَ وحياكةَ النسجية.

تتألّف النسجية من ثلاث قطع:

ـ تكتشف أمل القطعةَ **الأولى** في الصندوق الذي يحتوي كتابات آنا، وهي رسائل ومذكّرات كتبتْها بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وهذا الصندوق أحضرتْه إيزابل معها من أميركا، وذلك بناءً على نصيحةٍ من عمر، حبيبِها.

ـ يَعْثر عمر، شقيقُ أمل، على القطعة **الثانية** بين أغراضه في منزله في أميركا ويُرْسلها إلى أمل مع إيزابل.

ـ **تَظْهر** القطعة الثالثة في شنطة إيزابل بعد زيارتها الغريبة للمكان الذي حاكت فيه آنا نسجيّتَها.

الجدير ذكرُه أنّ شريف البارودي، زوجَ آنا المصريّ، هو الذي اختار الآيةَ القرآنيةَ التي أدخلتْها آنا في نسجيتها.

تمثّل النسجيةُ إيزيس وأوزوريس، وبينهما الطفلُ حورس. وتتألّف من ثلاث قطع هي، من اليمين إلى الشمال:

١ ـ إيزيس، وفوق رأسها كلمة «يُخْرِج.»

٢ ـ حورس، وفوق رأسه كلمتا «الحيّ مِنَ.»

٣ ـ أوزوريس، وفوق رأسه كلمةُ «الميت.»

(أنظر الرسم رقم ٢).

لكنّنا نتعرّف أولاً إلى ترتيب القطع حسب **الحكاية**، أيْ حسب ظهورها في السرد. وفي آخر الرواية نتعرّف إلى الترتيب «الأصليّ» أيْ ترتيب **الحياكة**. فأين «الأصل» وأين البدء؟ تَنْعكس مواقعُ البداية (الحياكة) والنهاية (الحكاية)، إذن.[1] وفي تبادل المواقع هذا، تتبادل أيضًا مواقعُ قِطَع النسجية: فما كان في «الأوّل» أي الذّكر/الميت، يصبح في «الآخر،» والعكس. وهذا ما يَرْسم حركةً تقاطعيةً، يظلّ فيها الطفل/البيْنُ في البيْن أو البينونة، بينما تتقاطع مواقعُ الأنوثة والذكورة. فمَنْ في الأوّل ومَنْ في الآخر؟ أين البداية وأين النهاية؟ هل الحكاية قبل الحياكة أم بعدها؟ يَنْكسر منطق الثنائية هذا، ويدخل الطرفان في التقاطع. (انظر الرسم رقم ٣)

١ ـ يُذكر أنّ حركة النول هي حركةُ البدء من الآخر، والعكس.

رسم رقم ٢

**ترتيب قطع النسجية حسب الحكاية**

**AMAL**

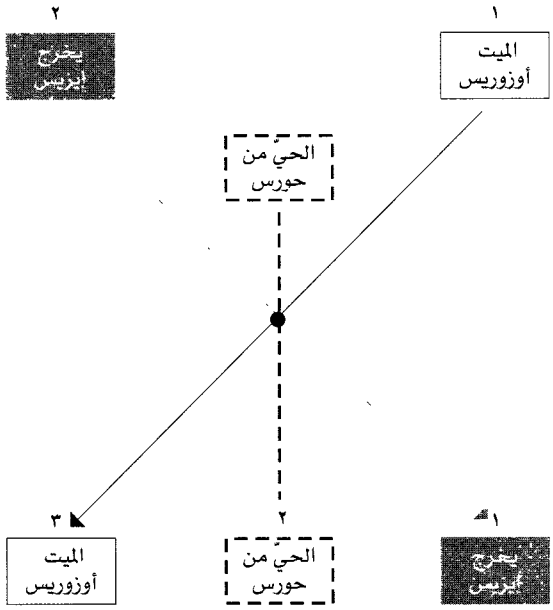


**ترتيب قطع النسجية حسب الحياكة**

**ANNA**

رسم رقم ٣

**حركة انتقال قطع النسجية (الحياكة)**

**ANNA**

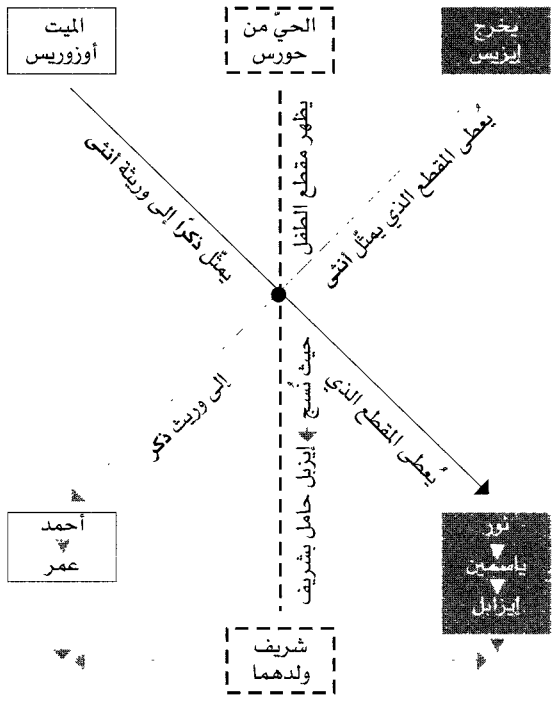


**حركة انتقال قطع النسجية (الحكاية)**

**AMAL**

ونَشهد الحركةَ نفسَها في انتقال قطع النسجية بالتوارث: إذ يُعطى المقطعُ الذي يمثّل **الأنثى** (إيزيس) إلى وريثٍ **ذَكَـــرٍ** (باللّون الأخضر)، ويُعطى المقطعُ الذي يمثّل **الذَّكَر** (أوزوريس) إلى وريثةٍ **أنثى** (باللون الأزرق)، بينمـا **يَظْهـر** المقطعُ الذي يمثّل الطفلَ حورس حيث نُسج، وفي الوقت الذي تكون فيه إيزابل حاملاً بشريف (اللون البرتقاليّ).

(انظر الرسم رقم ٤، ص ٨١).

نرى في الرسم ٤ التركيبَ الاختلافيّ الأساسيّ للرواية، وهو يبيّن حركةَ الديناميات الاختلافية في تقاطعها:

ـ أولى الديناميات هي الدينامية الزمنية (الصليب الأكبر باللونين الزهريّ والأسود، ويشير اللونُ الزهريّ إلى عناوين فصول الرواية الأربعة، أما اللون الأسود فهو يشير إلى الفترة الزمنية للسرد): نرى، إذن، تبادُلَ مواقع النهاية والبداية في كلّ مرّة (أنظر المربّعات الأربعة باللونيْن الزهريّ والأسود). بهذا المعنى تَكْسر حركةُ هذه الدينامية منطقَ الأسبقية الزمنية (قبل/بعد، بداية/نهاية): فليس ثمّة بداية ونهاية، بل تقاطع.

ـ الدينامية الثانية هي دينامية الكتابة والقراءة أو الحياكة والحكاية (باللون الأحمر): هنا أيضًا تقاطُعٌ، إذ آنا تحيك النسجيةَ وتَكْتب مذكراتٍ ورسائلَ (أنظر أعلى الرسم ٤): وأمل، قريبةُ آنا بالسلالة، تشكّل قِطَعَ (أيْ حكايةَ) النسجية، وتقرأ كتاباتِ آنا فتكتبها سردًا نقرأه. فأين القَبْل والبَعْد في الترتيب الزمنيّ؟ ثمّة تقاطعٌ «توالديّ،» كما في تقاطُعِ الأنثى والذكر الذي به يولد الطفلُ /البيْنُ.

ـ وتلك هي الديناميـة الثـالثـة، ديناميـةُ الأنوثة والذكورة (أنظر الصليب الأصغر، باللونيْن الأزرق والأخضر): لا الأنثى قبل الذكر ولا العكس، وإنْ كانت الأنثى هنا والمتمثّلةُ في ثلاثة، آنا ـ أمل ـ إيزيس، هي التي تحيك ـ تحكي ـ تُحيي: فحسب الأسطورة تُحيي إيزيس زوجَها وأخاها الميت أوزوريس: وهكذا يُحيي شريف الذي قُتل، يُحيى من جديدٍ في طفل إيزابل وعمر (أنظر اللون البرتقاليّ). إذن لا الحياة قبل الموت، ولا العكس.

ـ أما دينامية السلالة (باللونيْن الأزرق والأخضر على الجوانب) فهي في الوقت نفسه دينامية أنوثة/ذكورة. ذلك أنّ الأقرباء يرتبطون بعلاقات حُبّ وإنجاب (أنظر أسفل المربّع).

هكذا، وبعد أن اكتملت النسجية، واكتملت حكايتُها وحكايةُ آنا، تتخلّى أمل في الرواية عن السرد وتترك لنا مهمّةَ متابعة الآية القرآنية، فتستمرّ الديناميةُ التقاطعيةُ وهي دينامية الوجود:

يُخرِج الحيَّ من الميتِ

ويُخرِج الميتَ من الحيّ

(انظر الرسم رقم ٥)

في هذه الحركة نعود لنقرأ «إهداءَ» أهداف سويف إلى والدتها: فهي، الابنة، تَرجع إلى مَنْ أنجبتْها. وكأنّما النهاية (الموت) تتقاطع مع البداية: الأمّ ـ الولادة ـ الحياة.

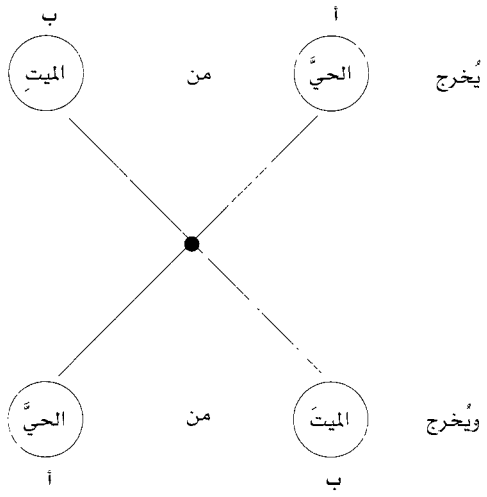


في هذا الشكل الذي يرتسم (في الرسم ٤)، أيْ شكل الصليب، نرى شكل المثلّث (مثلّث قطع النسجية)، وفيه نرى شكلَ الأهرامات بما هي رمزٌ للحياة بعد الموت عند المصريّين القدامى. وفيه نرى أيضًا الدلتا بما هو مكانُ الخصوبة والحياة. وفي هذا الشكل يمكننا أيضًا أن نرى صليب إيزيس (ankh)، الذي يَرْمز إلى قدراتها الكونية. ويمكننا أن نرى أشياء كثيرة أخرى... لكنّني أفضّل أن أرى في هذا الرسم خارطةَ الحبِّ التي لمّا نزل نقرأها، ولمّا تزل تقرأنا.

**بيروت**

**ليلى الخطيب**

رسم رقم ٤

## التركيب الاختلافي